الفصل

5

المغادرات

قبيل أعوام التسعينيات من القرن التاسع عشر، أصبح فرويد طبيباً له مكانته وعضو ممتاز في الطبقة الاجتماعية المتوسطة. في عام 1891 انتقلت عائلة فرويد إلى بناء بيرغاس Berggasse رقم 19. عاش فرويد في ذلك البناء لمدة 47 عاماً إلى أن فرَّ من النازيين في عام 1938. ملأت عائلة فرويد منزلهم بالسجاد والطاولات والأكواب والخدم والأطفال. وبعد ولادة ابنتهم ماتيلدا في عام 1887، كَبُرت عائلة فرويد بسرعة مع قدوم جين مارتن كانت تدعوه أسرته باسم (مارتن) في عام 1889 وتبعه أوليفر Oliver في عام 1891 وإرنست Ernst في عام 1892 وصوفي Sophie في عام 1893 وأنَّا Anna في عام 1895. كانت لدى فرويد عادة تسمية أولاده على أسماء أصدقائه ومعلميه هو وليس لمارثا. إذ نجده يسمي جين مارتن

يقف فرويد في أقصى اليمين مع شقيقتيه وأولادهما أثناء العطلة الصيفية في عام 1900. في كل صيف تغادر عائلة فرويد ڤيينا لقضاء إجازة في الجبال.

على اسم تشاركو وأوليڤر على اسم أوليڤر كروموبل الثائر البريطاني في القرن السابع عشر الذي أسقط النظام الملكي، وإرنست على اسم بروك، وماتيلدا على اسم زوجة بروير، وصوفي وأنّا على اسم ابنة وابنة أخ لمعلمة له في المدرسة الثانوية. رعت مارثا الأولاد وما مروا به من أحوال صحية كالدفتريا والرشوحات وجدري الماء والزكام وكانت حريصة على تقديم وجبة الغداء في موعدها المحدد كل يوم. كان فرويد يستمتع بلحم البقر المسلوق على وجه التحديد ويكره لحم الدجاج. كان يعلم أولاده «لا ينبغي للمرء أن يقتل الدجاج، دعوهم يعيشوا ويضعوا بيوضاً».

من فصل الخريف إلى فصل الربيع، كان فرويد يعمل ستة أيام في الأسبوع. وكان يرى المرضى من الساعة 8:00 إلى الساعة 12:00، ويكتب ملاحظاته، ويأكل في الساعة 1:00 ويتمشى ثم يتحدث مع أطباء آخرين أو يرى مزيداً من المرضى من الساعة 3:00 وحتى الساعة 9:00. تذكر ابن فرويد مارتن أحياناً عمل فيها أباه من 16 ساعة إلى 18 ساعة في اليوم الواحد. وفي يوم السبت كان فرويد يلعب بورق (الشدة) مع أصدقائه القدامى بما فيهم الدكتور ليوبولد كونيغستاين الذي شاركه في إجراء البحوث على الكوكائين، وفي أيام الأحد كان يزور والدته، أما في الأعياد كما استذكر مارتن فرويد فيما بعد: «كانت احتفالاتنا في أعياد الميلاد مع الهدايا الموضوعة تحت شجرة مزدانة بالأضواء وفي عيد الفصح

مع البيض الملون بألوان زاهية. لم أكن أذهب أبداً إلى الكنيس اليهودي synagogue ولا حتى أشقائي أو شقيقاتي كما أعلم».

في كل عام كانت عائلة فرويد تغادر ڤيينا في شهر أيار أو تموز ذاهبة إلى المنتجعات على الجبال. تذهب مارثا والأولاد أولاً مع شقيقة مارثا مينا Minna التي انضمت إلى أهل البيت في التسعينيات من القرن التاسع عشر بعد وفاة خطيبها بمرض السل. وكان من عادة فرويد أن يستمر في العمل حتى شهر تموز وبعد ذلك ينضم إلى عائلته لقضاء عطلة العيد والبقاء معهم حتى منتصف شهر أيلول. وغالباً ما كان يمضي بضع أسابيع مسافراً بمفرده لمشاهدة الآثار القديمة والمواقع الأثرية. وكان الأولاد يسيحون صعوداً ونزولاً في هضاب باڤاريا يبحثون عن ثمار الفريز (الفراولة). وفي أواخر الصيف كان فرويد يقود صغاره في رحلة صيد نبات الفطر ويعلمهم التعرف على الغاريقون السام والتهام عينات مختارة منها بلا خوف.

أحب فرويد أولاده لكنه لم يخطط في بداية زواجه أن ينجب ستة أولاد. كان فرويد ومارثا يأملان أن آخر حمل لها بابنتهما أنّا هو انقطاع مبكر للطمث. وكان فرويد مشغول البار كثيراً عن صحة أولاده وكان يكتب في رسائله إلى فلييس عن كل مرض يمرضونه ـ يبدو أن كل مرض ينتقل دائماً من طفل إلى طفل إلى أن يمر الدور

على الجميع. عندما شارفت ماتيلدا على الموت بعد أن خضعت لعملية جراحية في عام 1905، رمى بخفة على الجدار محطماً واحداً من أحب التماثيل الرخامية الصغيرة على قلبه.

كتب فرويد فيما بعد في (علم النفس المرضي في الحياة اليومية) «إن هجومي الصادر عن الغضب الهدام قد ساعد على التعبير عن مشاعر الامتنان للقدر وسمح لي أن أقوم بفعل فيه تضحية أكثر من لو أنني هممت بالتضحية بشيء ما أو بآخر كنوع من التعبير عن الشكر إن هي تماثلت للشفاء».

وعلى الرغم من كثرة الأشياء التي عرقلت نشاطه، استمر فرويد في إيجاد الوقت للتأمل في أسباب الأمراض النفسية. ومع مرور الوقت أضحى فرويد مقتنعاً لقوة أن الكبت الجنسي هو السبب الأصيل للهستيريا. في عام 1894 كتب فرويد «في جميع الحالات التي حللتها كان موضوع الحياة الجنسية هو الذي يقف وراء اضطراب العاطفة عندها». أعلى فرويد شأن نظرية جنسية للهستيريا، بينما نأى بروير عن ذلك. وكان لكل منهما أسبابه الخاصة. كتب فرويد في (دراسات عن الهستيريا) (1875)، «إن الغريزة الجنسية هي من غير شك المصدر الأقوى للزيادة المستمرة في الاستثارة وبالتالي في العصابات». وبعبارة أخرى تؤدي الدوافع الجنسية إلى زيادة في «الطاقة» النفسية التي رأى روبد وبروير «وجوب

التخلص منها». ومع ذلك اعتقد بروير أن الجنس من الممكن ألا يكون المصدر الوحيد للطاقة النفسية. وقبيل عام 1894 توصل فرويد إلى الاعتقاد الذي مفاده أن الدوافع الجنسية المحبطة هي المصدر الوحيد للأعراض الهستيرية إن الاختلاف في الرأي العيادي بين الرجلين كان باعثاً على حدوث الصدع بينهما.

كان بروير باحثاً حريصاً ودقيقاً، فقد أجلَّ نشر اكتشافاته عن الأذن الداخلية إلى أن أثبت نتائجه في عينات متعددة. لقد أخَّرت، نزعة بروير إلى الكمال في الأعمال والارتياب الذاتي، نَشر دراسة حالة أنَّا أو. لأكثر من 12 عاماً بعد أن انتهى من تحليلها وبقي غير مرتاح من محتوى الدراسة.

كتب بروير فيما بعد «أعترف أن الانغماس في موضوع الجنسية في النظرية والتطبيق يتعارض مع ذوقي» وفي ذات الوقت كان الباحثون في فرنسا ينشرون أعمالاً عن الهستيريا مما جعلت أعمال فرويد وبروير تبدو أقل أصالة.

وعلى صعيد آخر، شعر فرويد بالحاجة الملحة للنجاح بعد حادثة الكوكائين وإخفاق بحثه في موضوع الهستيريا عند الذكور.

آمن فرويد بنظريته إيماناً جازماً وأراد أن يروج لها بكل ما أوتي من إمكانات قبل أن يسرق شخص آخر أفكاره. واعتبر حذر بروير منها خيانة. وقد زاد من سوء

العلاقة بين فرويد وبرويرِ هو أن فرويد مديون بأفضالِ برويرِ عليه الذي سمح له بالمشاركة في حالة أنَّا أو. وفي طريقة العلاج بالتنفيس الانفعالي معه، ناهيك عن ذكر القروض المالية التي منحها برويرِ إلى فرويد عند زواجه.

لقد بدا الآن برويرِ إلى فرويد مستمسكاً بالماضي، وسبباً في تراجع نشاطه المهني. وكان على فرويد أن يقاوم برويرِ حتى يفتح الطريق أمام كتابه (الدراسات) لتصل إلى مرحلة الطباعة. وفي الوقت الذي شارف فيه الكتاب على النشر في عام 1895 كانت العلاقة سيئة بين فرويد وبرويرِ. لم يستطع برويرِ تقبل فكرة الطاقة الجنسية على أنها السبب الوحيد للهستيريا كما لم يستطع فرويد تحمل تشكيك برويرِ بفكرته. أخذ فرويد يخفض مستوى الاتصال بينه وبين برويرِ تدريجياً وفي عام 1877 حرص فرويد على الابتعاد عن برويرِ الذي كان في وقت من الأوقات شريكه وصديقه. وأضحى فرويد يعتمد كلية على ويلهالم فلييس في تقديم المساندة والنقد لنظرياته التي ما تزال في طور النمو. وبينما كان فرويد يتفكر في الهستيريا كان يطور أيضاً تقانات علاجية. فقد تعرف فرويد عن طريق إيمي ڤان إن. وأنَّا أو. وإليزابيث آر. على «علاج الكلام» وعلى استخدام طريقة برويرِ في التنفيس الانفعالي.

كما تعلم أن يصغي بفعالية إلى قصص مرضاه وأن يدفعهم إلى البحث عن مصادر أعراضهم. لقد كان ناجحاً

في مزاولة مهنته إلى درجة جعلته يصبح طموحاً. فبدأ بتأليف كتاب عن النظرية الأساسية في علم النفس.

كان لفرويد مقاصد عدة من (مشروع علم النفس العلمي) Project for a Scientific Psychology مثله مثل كل باحث تقريباً عاش فرويد عصر النهضة ورغب في أن يثبت أن هناك قوانين ثابتة تتحكم بسلوك الإنسان. سعى فرويد إلى أن يظهر أنه بالإمكان اختزال هذه القوانين إلى مبادئ فيزيولوجية وكيميائية وميكانيكية التي تتحكم بالمواد الأخرى تماماً مثل ما فعل أستاذه الجامعي المعادي للمذهب الحيوي إرنست بروك قبل سنوات. باختصار أراد فرويد أن يبين أن علم النفس ما هو إلا علم متخصص آخر.

ومع ذلك كان لدى فرويد أسباب أخرى للشروع في المشروع.

أمضى فرويد وبروير وقتاً طويلاً يشرحان فيه الأساس الذي تقوم عليه الهستيريا والمرض العقلي، لكنهما لم يتوصلا إلى شرح الكيفية التي يعمل فيها العقل السليم. أراد فرويد أيضاً أن يسبر مسألة الكبت. ما هي القوانين التي تتحكم في كيفية حماية العقل لذاته من الذكريات المؤلمة؟

وصف فرويد في كتابه (المشروع) كيف تنتقل الطاقة عبر الدماغ يستقبل الدماغ، كما قال فرويد، «الاستثارة» إما من أحداث العالم الخارجي أو من أحداث داخل

أوليفر ومارتن وإرنست أبناء فرويد الثلاثة. كان فرويد أباً رفيقاً وكثيراً ما كان يكتب بافتخار إلى زملائه عن عنايته بأطفاله.

الجسم. تُحدد المبادئ الطريقة التي تتحرك بها الطاقة. العطالة inertia هي ميل الدماغ لأن يفرغ الطاقة والاستقرار constancy وهي الميل إلى المحافظة على استقرار كمية الاستثارة الكلية في الدماغ.

لكي نفهم كبقية التحكم بهذه الطاقة، توصل فرويد إلى معرفة البنى الدماغية المسؤولة عن الاستثارة أطلق على هذه البنى اسم «العصبونات». واعتبر أن اللذة أو

السعادة عبارة عن تفريغ للطاقة أما الكرب unpleasure فهو عبارة عن تنامي الاستثارة. يفترض في هذه البنى أن تؤدي وظيفتان مختلفتان هما العمليات الأولية والعمليات الثانوية. تتيح العمليات الأولية للطاقة أن تجري بحرية عبر الدماغ. أما العمليات الثانوية فإنها تمكن الدماغ من التمييز بين المثيرات الداخلية والخارجية المختلفة ومن كف بعض هذه المثيرات. ويتم عمل هذه «المحاكمة» كما جاء في كتابات فرويد بواسطة بنية عقلية تعرف باسم الأنا ego.

يحشد الأنا الطاقة لمنع الهلوسات والحوادث الأخرى التي تقع صدفة من التشويش على العقل.

عندما صاغ فرويد هذه النظرية المعقدة عن الطاقة العقلية أو النفسية كان يرتكز على معرفته التشريحية أو البيولوجية للدماغ. كما أنه لم يتكلم على الإطلاق عن البنى العضوية وكان يصف العمليات العقلية التي تلقى الدعم من الوظائف البيولوجية للدماغ بطريقة ما غير محددة. إلا أنه كان يعلم أن مفهومه عن العقل ناقص من دون نموذج بيولوجي أو ميكانيكي لعملية إبقاء الأفكار المزعجة في مستوى اللاشعور أو تحت الكبت. إذ أن الحديث عن الطاقات المتنقلة لم يكن كافياً.

وهذا أحد الأسباب التي جعلت الصداقة مع فلييس بهذه الأهمية بالنسبة إلى فرويد. إذ كان يأمل من فلييس أن يزوده بالأساس البيولوجي الذي يحتاجه لتبرير الآليات

النفسية التي جاء بها. من الممكن أن يفضي تعاون فلييس مع فرويد إلى تمكين فرويد الذي كان هو ذاته ضليعاً في علم الأحياء من التفكر بالعقل وليس بالدماغ. وكما جاء في رسالة فرويد إلى فلييس «إن فكرة أن كلينا مشغول بنفس النوع من العمل هو أكثر ما يسعدني من وجهة نظري إذ أستطيع أن أرى كيف أنك تستطيع بواسطة الالتفاف على مزاولة مهنة الطب أن تصل إلى أفضل فهم ممكن للكائنات البشرية بصفتك عالم بوظائف الأعضاء تماماً مثلما أعيش أنا على أمل الوصول عن طريق اتباع نفس المسارات للوصول إلى هدفي الأول في الفلسفة».

ألّف فرويد وثيقة مؤلفة من عدة فصول تلخص أفكاره وبعث بها إلى فلييس ليحظى بموافقته عليها وذلك في 8 تشرين الثاني من عام 1895. وعلى الرغم من كتابته الملتهبة ساورت فرويد الشكوك. وفي رسائله إلى فلييس ابتعد فرويد عن ذكر «حُمى الكتابة» عنده إلى ذكر هجمات صداع الشقيقة والإرهاق كما صرح بأنه كان مُجهَداً ومؤرقاً ومشوشاً. وفي النهاية لم يستطع فرويد أن يشكل نموذجاً ميكانيكياً أو بيولوجياً للكبت الذي أراد أن يقيمه لغرض التفسير. وما ذكره عن الطاقات المتنقلة لم يكن كافياً لذلك قرر في النهاية أن يهجر هذا المشروع.

وعلى الرغم من أن مفهوم فرويد عن العقل كان ناقصاً إلا أن طريقته كانت ذات معنى. فقد أنشأ مخططاً منطقياً داخلياً يصف كيف تتحول الطاقة الفيزيائية إلى طاقة

نفسية. تم الاصطلاح على مشروع فرويد من قبل كثير من الكتّاب باسم «النيوتوني». وبشكل مماثل لأفكار إسحاق نيوتن عن القوانين الكونية للحركة والجاذبية حيث كانت ثورية وناقصة، اتخذ فرويد الخطوات الأولى في وضع علم النفس على المسار العلمي. وكان قد ألحّ على أنه باستطاعة محتوى التفكير أن يحدث سلوكاً مضطرباً، وأنه في ظل الظروف الطبيعية يمكن بطريقة ما مراقبة الأفكار المزعجة فإنه بناء على ما سبق يكون هناك مستويات مختلفة للأفكار، بعض هذه الأفكار لا يدري بها العقل الواعي أو الشعوري.

اعتقد فرويد أيضاً منذ عام 1896 أن السبب الأصيل لكل أنواع العصاب والمرض العقلي هو الجنس. قسم فرويد العصابات إلى عصابات نفسية كالهستيريا والوساوس المتسلطة التي تَحدثُ بفعل رضى جنسي في الطفولة إلى عصابات حقيقية والتي تظهر بفعل انحرافات في الحياة الجنسية بعد البلوغ عند المريض.

يعاني ضحايا العصاب الحقيقي، كما يعتقد فرويد، من الإحباط الجنسي، وعلى وجه الخصوص من الاستمناء ومن الانقطاعات التي تصيب عملية الجماع الجنسي (كانسحاب عضو التناسل الذكري من البَظر أثناء الجماع الجنسي قبل أن يصل الذكر إلى الذروة أو النشوة الجنسية).

إن هذه النظرة المبسطة عن الجنسية عند البالغين -

التي تعتبر أن الحرمان من اللذة الجنسية يؤدي تلقائياً إلى المرض النفسي. قد أعرض عنها معظم الباحثون والمعالجون العصريون. كما عارض فرويد ذاته فيما بعد نظرته المبكرة. ومع ذلك يشعر كثير من المعالجين في وقتنا الحاضر أنه ربما كان فرويد على حق في عام 1896 عندما بدأ بالتأكيد على أن بعض العصابات التي تصيب الكبار تعود على وجه التحديد إلى تعرضهم للاضطهاد الجنسي وهم أطفال على يد أناس كبار. إن نظرية فرويد في الهستيريا هي نظرية في الذاكرة، إذ أطلق عليها اسم «نظرية الإغواء» Seduction Theory.

ووفقاً لهذا النموذج يتسبب الرضى الجنسي في الطفولة أساساً، والذي تكون له ردة فعل شديدة، في إحداث الأعراض الهستيرية. لا يستطيع الطفل أثناء تعرضه للاعتداء الجنسي أن يستوعب ما الذي حصل له تماماً. عند البلوغ يمكن للشخص الهستيري الناضج جنسياً أن يعاني من شدة نفسية قليلة. ومن المعتاد أن لا يكون هذا الرضى الجديد شديداً بحيث يؤدي إلى حدوث الهستيريا، لكنه يستطيع أن ينعش ذكريات الاضطهاد الجنسي أثناء الطفولة، التي يستطيع الشاب أن يعيها الآن. يُحوِّل الرضى الطفولي طاقته إلى خبرة جديدة ويكتسب المريض فجأة استثارة زائدة. يتم تفريغ هذه الطاقة على شكل أعراض جسدية من مثل الشلل. أما الوساوس فلها شأن آخر. عندما حدث للمرضى الوسواسيون خبرات جنسية طفولية لم يعانوا بنفس الطريقة التي عانى منها

المرضى الهستيريون. لقد شعر الوسواسيون باللذة لكنهم لم يكونوا قادرين على تحويل الاستثارة الزائدة عندهم إلى أعراض جسدية، وعوضاً عن ذلك كان بمقدور الشخص الوسواسي أن يفعل بين الفكرة الممنوعة والاستثارة الحاصلة عنده. إن هذه الطاقة التي أصبحت الآن حرة تعلن نفسها بفكرة أخرى أكثر قبولاً والتي يحوم حولها العقل مرات ومرات. إن الوساوس في جوهرها هي تعبير عن الذنب في حين أن الهستيريا هي ذاكرة الاضطهاد.

اعتقد فرويد بطريقته الڤكتورية، أن هذه الأفكار قد فسرت أسباب شيوع الهستيريا إلى حد كبير بين النساء، بينما تشيع الوساوس بين الرجال بشكل أكبر. لقد قبل التصور السائد عن النساء أنهن سلبيات تجاه الجنس ويخفن منه.

بينما يستمتع الرجال على نحو فعال بالجنس. لم يستطع فرويد، الناقد الكبير للثقافة الڤكتورية عند الطبقة المتوسطة، أن يحرر نفسه تماماً من انحيازها.

لقد كانت نظرية الإغواء عند فرويد بمثابة عمل فني رفيع له، ضمت كل أعماله السابقة.

تفسر نظرية الإغواء بطريقة مقنعة كيف تحدث الأعراض الهستيرية ولماذا تبدو جميع مشكلات مرضاه أنها تحتوي على الجنس. وفي 21 نيسان من عام 1896 ألقى فرويد محاضرة إلى جمعية ڤيينا للطب النفسي عن

أفكاره المتطورة في أصل الهستيريا. وصرح بأنه كان بمثابة المكتشف الذي يتفحص آثار مدينة قديمة حيث يسبر أغوار الماضي المؤلم عند المريض الهستيري. أظهرت كل حالة من 18 حالة هستيريا كان قد عالجها فرويد، كما ادعى، أن الهستيريا متأصلة في خبرة الاضطهاد الجنسي في الطفولة. قارن فرويد هذا الكشف باكتشاف منابع نهر النيل. ومع ذلك صرح فرويد أنه حينما أحصى مرضاه مشاهد الاضطهاد الجنسي، لم يشعروا أنهم كانوا يتذكرونها كما فعلوا عندما اكتشفوا ذكريات أخرى كانت غائبة.

تم إجمال ردة الفعل على كلام فرويد من قبل ريتشارد ڤان كرافت ـ إبنغ Richard Von Kraft-Ebing، وهو باحث قد ير في موضوع الجنس الذي قال «يبدو كأنه حكاية علمية». لم تكن نظرية الجنس هي المشكلة إذ أن كثيراً من الدراسات الطبية النفسية لحالة الفتيات اللاتي تعرضن للاعتداء من قبل آبائهن قد تم نشرها. وبالرغم من ذلك اعتقد معظم الخبراء أن السبب في حدوث الهستيريا هو إما الرضى الجسدي في البحث أو ميل فطري ما يساعد على شكل الحالة وليس بسبب خبرة مزعجة.

وقبيل حلول عام 1896 استغنى فرويد عن هذه الأفكار المقبولة عن الهستيريا. إلا أنه استمر في استخدام الاستعارات اللفظية البيولوجية في عمله وأصبح الآن قيد

إنشاء نظرية نفسية بحتة عن المرض النفسي.

وكان فرويد، في العام الماضي، قد شهد عرضاً حياً لما يمكن حدوثه عندما يتم معالجة المشكلة النفسية مثل المرض العضوي. وفي أثناء فصل الشتاء الواقع بين عامي 1895 ـ 1896 قام فرويد بمعالجة امرأة تدعى إيما إيكستاين Emma Eckstein كانت المريضة تعاني من كثير من أعراض القلق المختلفة، بما في ذلك آلام في المعدة وصعوبة في السير. طلب فرويد، الطبيب صاحب الضمير الحي على الدوام، من فلييس أن يأتي إلى ڤيينا ليرى إيكستاين ويؤكد ما إذا كانت أعراضها نتيجة مشكلات عضوية، كالإصابة التي تعرضت لها في أنفها.

وبعد إجراء الفحص الطبي قرر فلييس ضرورة العمل الجراحي لأنفها وقام هو بإجرائه في أواخر شهر شباط عام 1895. لم تعد إيما إيكستاين تشتكي من آلام المعدة وعوضاً عن ذلك بدأت تعاني من ألم مبرح ومن نزيف في أنفها ومن رائحة كريهة صادرة عن الموقع الذي أجري فيه العمل الجراحي.

وبعد أسبوعين من العملية أحس فرويد بالقلق والتشوش وأحضر جراحاً محلياً ليراها. وبعد أن قام الجراح بتنظيف المنطقة حول الجرح، كما جاء في رسالة فرويد إلى فلييس، «سحب فجأة شيئاً يشبه الخيط. استمر في السحب، وقبل أن يجد أي منا الوقت لأن يفكر تم استخراج نصف متر من الشاش على الأقل من التجويف. وجاءت اللحظة التالية بسيل من الدم. ابيضَّ وجه

المريضة، وانتفخت عيناها، ولم يعد نبض قلبها محسوساً». أعاد الجرَّاح تضميد الجراح بسرعة موقفاً نزيف الدم. بينما انطلق فرويد الذي كان يرتجف خوفاً إلى الغرفة المجاورة ليشرب كأساً من الكونياك. ولما عاد حَيتْهُ إيكستاين معلقة «إذاً هذا هو الجنس القوي».

كان فرويد مرعوباً من عدم نجاح عملية فلييس. إلا أنه كان واضحاً ارتكاب خطأ نسيان الشاش في تجويف أنف المريضة مما أعاق التئام الجرح على النحو المناسب. لقد شاهد فرويد بوصفه طبيباً دماءً كثيرة. وكان الشيء الذي أغضبه هو «أن هذا الحدث المؤسف قد حصل معه» كما صاغها فرويد بعناية في رسالته إلى فلييس. في عام 1895 لم يكن لفرويد أصدقاء كثر ولم يكن بمقدوره تحمل الانفصال عن فلييس، وبدلاً من ذلك وجد طريقة في إلقاء اللوم على الشخص الآخر الوحيد الذي له صلة بهذا الموضوع. ألا وهو المريضة.

وبعد مرور عام على تماثل إيكستاين للشفاء، أخبر فرويد فلييس أنها كانت نازفةُ دمٍ هستيرية. عادت إيكستاين إلى فرويد لمتابعة العلاج كما اعترفت بأن لديها تاريخاً طويلاً من نزف الأنف.

لقد كان نزيف الدم عند إيكستاين، كما فسره فرويد، مراهنة هستيرية للحصول على الاهتمام. عانى فرويد مرارة تبرئة فلييس وجعله يتوقف عن الإحساس بالذنب تجاه مشكلة قطعة الشاش.

وكان مستغرباً أن تسامح إيكستاين فرويد لدوره في العملية الفاشلة وأن تصدق أن أعراضها كانت نفسية رغم أنها لم تعد قادرة على السير في معظم الأحيان لمدى الحياة. حتى أنها أصبحت هي ذاتها محللة. وكان فرويد يراسلها من حين لآخر لسنوات عديدة بعد المعالجة. وبمقدار ما كان فرويد يحاول أن يبعد إيما إيكستاين عن تفكيره بمقدار ما كان يعود هذا الموضوع إلى عقله، ولكن ليس إلى عقله الشعوري.

وفي 23 و24 تموز من عام 1895 بعد خمسة أشهر على عملية إيكستاين، شاهد فرويد ما أسماه «حلم حقنة إيرما» Irma's Injection حلل فرويد هذا الحلم على الفور وقدم نسخة مختصرة منه في المشروع من أجل علم نفسي علمي.

حَلُمَ فرويد أنه التقى بمريضته إيرما في قاعة كبيرة ممتلئة بالضيوف تنحى فرويد بها جانباً وأخذ يؤنبها على عدم قبولها حله قائلاً «إذا كنت لا تزالين تعاني من الألم فإن الغلطة غلطتك وحدك» أجابت إيرما أن آلامها كادت تخنقها. لاحظ فرويد أن إيرما كانت تبدو شاحبة ولاهثة فنظر إلى بلعومها وهناك وجد جرباً أبيضاً على ما قد بدا له هيكل الأنف العظمي. اتصل فرويد بأطباء متنوعي الاختصاص ليفحصوا إيرما، بما في ذلك «أوتو» Otto [أوسكار ري Oscar Rie وهو زميل له كان قد انتقد علاجه مع إيرما في اليوم الذي قبله] وكذلك دعا فلييس.

وكما استدعى فرويد من ذاكرته أعطى أوتو على عجل حقنة إلى إيرما، وربما بمحقنة غير نظيفة. (خلال حياة فرويد المهنية، كان فرويد فخوراً بنفسه كثيراً لأنه على مدى عامين كان يحقن مريضة مسنة بحقنة مورفين مرتين في اليوم ولم يحدث أن أصيبت هذه المريضة بأي إنتان جراء ذلك).

عندما حلل فرويد هذا الحلم في عام 1895 نظر إليه على أنه عملية عقلية أولية، أي تفريغ تلقائي للطاقة النفسية الزائدة. هذا الحلم، والقول لفرويد، ما هو إلا تحقيق رغبة أو أمنية بسيطة. إذ لم يكن استمرار معاناة إيرما خطأ هو مرتكبه وكان قادراً على الثأر من أوتو الذي لم يستطع أن يواجهه في الحياة الواقعية.

لم يذكر فرويد مأساة إيكستاين هنا ولا في أي وقت آخر من حياته، وفي كتابه المشروع لم يكن فرويد جاهزاً للخوض في موضوع التشوهات والاستمارات الغريبة التي صاغت لغة الأحلام. إلا أنه لاحظ أن لهذه الأحلام معنى ويمكن الكشف عن هذا المعنى عندما يكون المريض مستيقظاً.

قال فرويد مازحاً إلى فلييس أنه في يوم من الأيام ستكون على جدار منزلك لوحة تقول «في 24 تموز من عام 1895، انكشف النقاب عن سر الأحلام للدكتور سيغموند فرويد» وفي 23 تشرين الأول من عام 1896 توفي والد فرويد. لم يكن هذا الموت غير متوقعاً إذ كان

عمر يعقوب فرويد 81 عاماً وكان يعالج من اضطرابات في القلب في صيف ذلك العام، على الرغم من عداء فرويد القديم تجاه أبيه ذو الشخصية الضعيفة، إذ كان ذلك الأب الذي ينفض الغبار ببساطة عن قبعته حينما ينزعها شخص أُميٌّ غير يهودي عن رأسه ويلقيها في الشارع، فقد انهار فرويد لموت أبيه.

في عام 1896 كان فرويد طبيباً عمره 40 عاماً وله

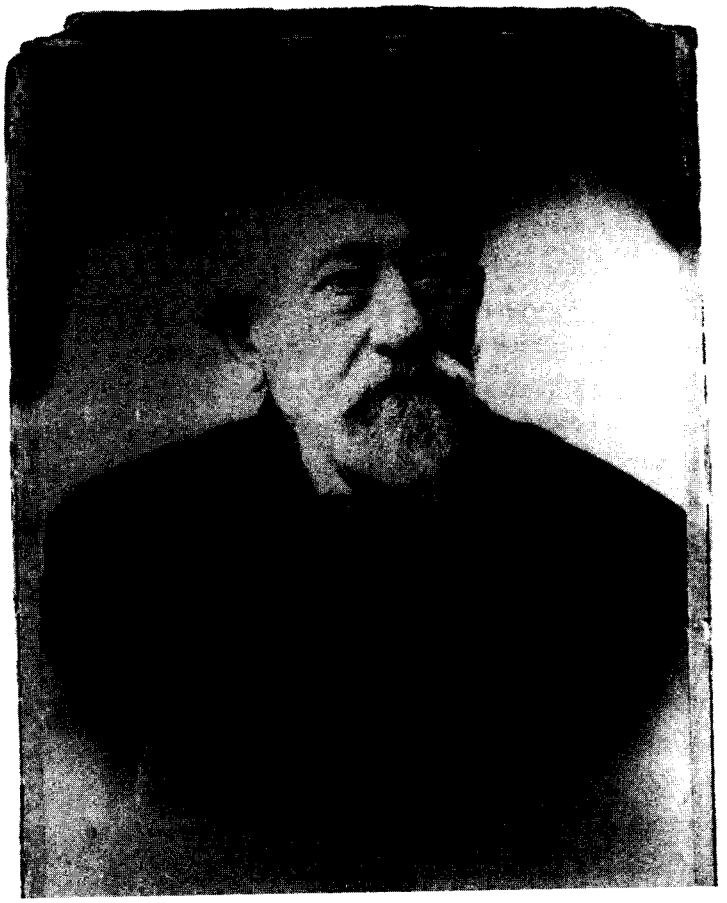

أثرت وفاة والده يعقوب في 23 تشرين الأول عام 1896 على فرويد تأثيراً عميقاً ودفعته إلى سبر أغوار نفسيته مما جعله يبدأ بإجراء التحليل النفسي على ذاته.

زوج وستة أطفال وعمل طبي مزدهر. ومع ذلك كتب إلى فلييس قائلاً «أثَّرت عليَّ وفاة والدي تأثيراً عميقاً... أشعر الآن أنني فقدت جذوري تماماً».

دفعت هذه الوفاة فرويد إلى الشروع في مشروعين: الأول كان تأليف كتاب تفسير الأحلام الذي تم نشره في عام 1899 والعمل الآخر كان يحتاج إلى تكريس أكبر للجهد والوقت والذي نفذه فرويد على مدى حياته وهو تحليله النفسي لذاته.

Dr. Sigm. Freud
Docent für Nervenkrankheiten
a. d. Universität

Wien, 21 Sept 97
IX., Berggasse 19.

Theurer Wilhelm

[illegible]